بعض ملاحظات

تتعلق بحياة أبي العـلاء وآثاره

« تشرفت بدعوة المجمع العلمي العربي بدمشق اياي لحضور مهرجان الشاعر الحكيم العظيم أبي العلاء المعري . وأنا أشكر للمجمع العلمي الموقر دعوته باسمي وباسم أدباء فارس وعلمائها ورجالاتها . وأعتذر لحضوري متأخراً فما كل ما يتمنى المرء يدركه .

لقد هيأت بحثاً موجزاً كتبته باللغة الفرنسية لألقيه إبان المهرجان فلم أتمكن من ذلك وقد طلبت إلى صديقي الدكتور أسعد طلس أن يترجمه إلى العربية ففعل مشكوراً .

وسأرجع إلى طهران حاملاً الى بلادي أطيب الذكريات لرجال سورية الأفاضل الذين غمروني بعطفهم وبخاصة رجال المجمع العلمي العربي وأدباء دمشق » .

* * *

قال بعض شعراء فارس متنبئاً بحظ الشعراء بعد موتهم :

« حينما يكون الشاعر حياً لا يقدر الناس شعره حق قدره، بل ان بعضهم ينقد لفظه كما ان آخرين يتهجمون على آرائه .

ولكنه إذا مات أصبح قوله أغلى من الدر واثمن من الابريز .

فياحبذا تلك الحالة الحسنة التي يصبح فيها الموت افضل من الحياة » .

لاشك في ان هذا الشاعر يتألم من حال كثير من معاصريه الذين لايقدرون قيمة شعره وعبقريته لما في نفوسهم من الحسد والفكر الضيق . كما لم يقدر كثير من الاقدمين عبقرية غيره من الشعراء والنوابغ .

إن ابا العلاء هو واحد من هؤلاء الشعراء الذين لقوا من معاصريهم مالقيه هذا الشاعر فانهم تهجموا على عبقريته وضيقوا عليه انفاسه في حياته ومنعوه أن يظهر بصورته الحقيقية . وذلك ان ابا العلاء ماكان يشبه قليلا او كثيراً من تقدمه من الشعراء إما باسلوبه الخاص او بافكاره الجريئة فكان طبيعياً ان ينظر الناس اليه نظرة قاسية ويتهجموا عليه ويشتموه ويلعنوه ويكفروه لا لشيء سوى انهم حاسدون او متعصبون رأى ذلك أبو العلاء من معاصريه فتعب منهم وتألم من مجتمعهم

واحتقرهم فانزوى في « محبسه » يعيش عيشة نسك وانزواء ويعبر عن آرائه بالفاظ غامضة واسلوب مبهم كل ذلك بتعمد منه لئلا يطلع على مذهبه وافكاره من ليسوا لها اهلا .

اشتهر ابو العلاء شهرة واسعة في حياته على الرغم من ذلك الانزواء الشديد الشديد وهو بحق اهل لتلك الشهرة لان قدره لم يكن قط بحاجة الى مرور الازمان ليعرفه المسلمون في كافة نواحي الارض .

ان الذين قدروا ابا العلاء في حياته هم كثيرون كما ان العلماء الذين كانوا يفتخرون بالنسبة اليه والاستفادة منه كانوا لا يحصون ، اما الملوك والامراء الذين كانوا يحبون ان يتشرفوا به وبزيارته فهم كثيرون أيضاً .

انا لا استطيع ان احدث طويلا عن ابي العلاء في هذا الجمع الحافل من علماء الشرق والمشرقيات لقلة بضاعتي ولكني حثت القي بعض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء احد كبار مفكري الشرق واحد مفاخره . وانا آمل أن اكون في بحثي هذا قد امطت اللثام عن بعض الأمور المبهمة في ادب ابي العلاء .

على الرغم من انزواء ابي العلاء في معرة النعمان فان صيته كان قد وصل الى اقصى حدود خراسان وما وراء النهر وذلك قبل نصف قرن من وفاته .

اذا استثنينا رحلة ابي العلاء القصيرة الى بغداد فاننا لانجد رحل الى بلد وراء بلاد الشرق الاسلامي ولكن هذا لم يمنع مواطني الفرس من ان يرحلوا الى بغداد من كل الجهات ليفيدوا من اقامته القصيرة في تلك المدينة . وكثير منهم من استسهل الصعاب فقصد معرة النعمان ليقرأ على الشيخ في داره .

وانه لمن الفخر ان يكون هؤلاء الفرس هم الذين نشروا آثاره وكتبه في بلاد الشرق الاسلامي في حياته وبعدها . وانه لمن الخير ان نلاحظ انهم كانوا اسبق من غيرهم في نشر ادب ابي العلاء .

ان من اول من تحدث عن المعري فيما اعرف من ادباء فارس هو ابو منصور الثعالبي في كتاب «تتمة اليتيمة» الذي نشرته في طهران [انظر ج ١/٩] . والذي الفه بين عامي ٤٠٤ و ٤٠٧ للهجرة اي قبل موت ابي العلاء باربعين او خمس واربعين سنة . وقد خصص الثعالبي فصلا عن حياة الشيخ كما روى لنا بعض شعره واليكم نص كلامه [كان حدثني ابو الحسن الدافي المصيصي الشاعر وهو من لقيته

قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب رأيت اعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى ابا العلاء سمعته يقول انا احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر فقد صنع لي واحسن بي اذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء قال وحضرته يوما وهو يملي في جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وافى الكتاب فأوجب الشكرا فضممته ولثمتـــه عشرا
وفضضتـــه وقرأته فاذا أجلى كتاب في الورى يقرا
فمحاه دمعي من تحـدره شوقاً اليـك فلم يدع سطرا

فتحفظتها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الاخوان اهـ]

وقد أورد ياقوت نص الثعالبي باختصار في معجم أدبائه [ج ١ /١٧٢ - ١٧٣]

وقد أضاف على ذلك (قال أنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري ما يريد القضـاء بالانسان
غير أني أقول قول محق قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً قابلتـه بجميل عواقب الاحسان .)

وإذا قارنا عبارة ياقوت بعبارة تتمة اليتيمة وجدنا أن هذه المقطوعة التي أوردها ياقوت ليست لأبي العلاء وإنما هي للمحسن بن عمرو بن المعلى الذي ترجمه الثعالبي في التتمة بعد أبي العلاء مباشرة . والراوي لهذه المقطوعة على قول الثعالبي هو أبو يعلى البصري لا أبو الحسن الدلفي كما زعم ياقوت . وتفسير هذا ان نسخة التتمة التي رآها ياقوت كانت مخرومة ينقصها بعض مقاطع فاشتبه الأمر على ياقوت فخلط بين شعر أبي العلاء وشعر المحسن . فأنبه العلماء على هذه الغلطة التي وقع فيها ياقوت وأرجوهم أن يصححوا ما قاله لئلا يقعوا في الفخ الذي وقع فيه .

بعد الثعالبي جاء ناصر خسرو الداعي الباطني والشاعر الفارسي المشهور الذي زار معرة النعمان في ١٥ رجب سنة ٤٣٨ أي قبل موت أبي العلاء باحدى عشرة سنة وقد حدثنا في رحلته « سفرنامه » بأخبار هامة عن شيخ المعرة وقد اعتمد عليها كثير من المستشرقين والشرقيين في دراساتهم ولذا فاني لا أحب أن أقف طويلاً أمامها وأناقشها .

ونحن إذا رحنا نفتش عن العلماء الفرس الذين ترجموا لأبي العلاء وشرحوه ونشروا آثاره نقف أمام عالم كبير هو أبو زكريا بن الخطيب التبريزي (٤٢١ — ٥٠٢) الذي سار على قدميه من تبريز إلى المعرة ليلقى حكيمها ويفيد منه مع أنه لم يكن له من العمر أيامئذ إلا قريب من سبعة عشر عاماً ولكن القدر قد عاكسه فان مدة استفادته من الشيخ لم تطل أكثر من سنة أو سنتين على أقصى تقدير . وهذا يفسر حملة صاحب التنوير على كتاب ضوء السقط للتبريزي واليك نص كلامه عن هذا الكتاب [غير واف بالمقصود ولا دال على الغرض المطلوب لتقاصره عن بلوغ ما يجب من الابانة والايضاح وقصوره على إشارات من مواضع معدودات لا تكشف الغطاء من مشكلة ولا تشفي ذاغلة ، قد عني الشارح فيه بشرح الألفاظ وتفصيل ما غمض من اللغات غير أنه حرم توفيق الاتقان فيما نقله ولم يصب شاكلة الصواب فيما استثبته وأصّله ، ولما لم يكن ضوؤه كافلاً باضاءة المعنى ولا معثراً على ما هو المقصود من إبانة الفحوى ...] (طبع مصر سنة ١٣٢٤ ص ٥) . وسنتكلم مفصلاً فيما صاحب التنوير .

وهناك مؤلف فارسي آخر تحدث عن أبي العلاء ونقل شيئاً كثيراً من مختار شعره وهو الباخرزي صاحب كتاب دمية القصر المؤلف في سنة ٤٦٤ أي بعد موت أبي العلاء بخمس عشرة سنة ، فقد حدثنا الباخرزي بأخباره منقولة عن أبي عثمان الصابوني الذي زار شاعرنا في معرة النعمان .

بعد أن انتشر كتاب ضوء السقط في العالم الاسلامي أصبحنا نجد عدداً كثيراً من الشراح الفرس ولن أتحدث اليكم في هذه الفترة عن شروحهم الكثيرة فان الوقت أضيق من ذلك ولكني أحب أن أقف وقفة طويلة أمام شارح واحد وهو صاحب التنوير الذي لا يزال إلى عهدنا هذا مجهولاً .

إن هذا الشرح القيم قد انتهى منه صاحبه في شهر محرم سنة ٥٤١ وقد نشر للمرة الأولى مطبوعا على الحجر في تبريز سنة ١٢٧٦ ثم نشر في القاهرة مرات عديدة وقد ذكر صاحب معجم المطبوعات العربية ومفهرس دار الكتب المصرية أن صاحب هذا الشرح هو ابن طاهر النحوي أبو يعقوب يوسف

ولكنهم لا يعرفوننا شيئاً عن أخبار أبي طاهر هذا ولا عن مصادرهم التي اعتمدوا عليها في هذا القول.

إن قولهم انه [نحوى] هو تحريف ظاهر عن كلة (خويي) لأن المؤلف كان من [خوي] وهي بلدة لاتزال موجودة الى ايامنا هذه في الشمال الغربي من بلاد آذربيجان في فارس وقد ذكر السمعاني في كتاب الانساب في نسبة [الخويي] مايأتي : « من المنسوبين الى خوي احدى بلاد آذربيجان صاحبنا ابويعقوب يوسف ابن محمد — كذا وهو تحريف ظاهر لكلمة طاهر — ابن الخوبي من اهل خوي سكن طوس وكان حسن السيرة فاضلا كتبت عنه اقطاعا من الشعر بنوقان وكان ينوب عن القاضي » [كتاب الانساب ورقة ٢١٢ ب] وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان [٢/٥٠١ في مادة خوي] مايأتي : «يوسف بن طاهر بن يوسف بن الحسن الخوي الاديب ابو يعقوب من اهل خوي اديب فاضل وفقيه بارع حسن السيرة رقيق الطبع مليح الشعر مستحسن النظم كتب لابي سعد الاجازة وقد كان سكن نوقان طوس ولي نيابة القضاء بها وحمدت سيرته في ذلك وله تصانيف من جملتها رسالة تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتحريف وقال ابو سعد وظني انه قتل في وقعة الغزية بطوس سنة ٥٤٩ أو قبلها بيسير » .

واذا نحن قارنا عبارة ياقوت بعبارة السمعاني عن ابي يعقوب نجد ان مااورده ياقوت عن السمعاني إما أن يكون من نسخة كاملة من كتاب الانساب لم تصل الينا وإما ان يكون من كتاب آخر للسمعاني .

ومما يجدر قوله انه قد بقي لنا كتاب ثانٍ من آثار أبي يعقوب وهو مجموعة أمثال عربية عنوانها — فرائد الخرائد — ومن الكتاب نسخة في المكتبة الوطنية باريس رقمها ٣٩٦٨ . وفي مقدمة هذا الكتاب نجد اسم المؤلف هكذا يوسف ابن طاهر الخويي . ويذكر الحاج خليفة هذا الكتاب فيقول : «فرائد الخرائد في الأمثال والحكم لابي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي فرغ منه سنة ٥٣٢ ذكر في اوله ان ابا الفضل احمد بن محمد الميداني وانه استاذه ألف كتابا لكنه اطال فيه فذكر فيه مااهمل من الامثال وألفه على ترتيب الحروف وادرج فيه الابيات السائرة والحكم » .

ويلاحظ المرء ان الحاج خليفه كان يعرف كتاب التنوير كما كان يعرف ابا يعقوب الخويي مؤلف الفرائد ولكنه لم ينسب كتاب التنوير اليه لان اسم المؤلف لم يكن مذكوراً في صدر كتاب التنوير .

ولا شك في ان مؤلف كتاب التنوير هو نفس مؤلف كتاب الفرائد الذي ذكره الحاج خليفة. كما انه لاشك في ان مؤلف التنوير هو نفس الرجل الذي ترجمه ياقوت والسمعاني. قد لاحظنا ان ياقوتاً والسمعاني لم يذكرا كتاب التنوير في عداد مؤلفات ابي يعقوب الخويي ولكن نلاحظ في مقدمة التنوير ان مؤلف هذا الكتاب كان مضطلعا بعلوم الدين والعقائد والطب فضلا عن الآداب . وانه كان يعيش في خراسان . وليس هناك مايمنع ان يكون نائب القاضي في طوس وانه ألف كتاباً دينياً اسمه تنزيه القرآن . [انظر بروكلمان ١/٢٨٩ الذيل ١/٤٥٣ و ٥٠٧] .

وخلاصة ماسبق :

١ً — ان مؤلف كتاب التنوير هو ابو يعقوب يوسف بن طاهر بن يوسف بن حسن الخويي من خوي احدى بلاد آذربيجان .

٢ً — كان شاعراً ومحدثاً واديباً وفقيهاً وكان مقيماً في طوس يشغل وظيفة نائب القاضي .

٣ً — كان تلميذاً لأبي الفضل الميداني صاحب مجمع الأمثال وكان السمعاني صاحب الانساب ممن اخذوا منه اجازة .

٤ً — إنه ألف كتاب فرائد الخرائد ليرتب كتاب أستاذه ويتممه في سنة ٥٣٢ ، وألف كتاب «تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتحريف» .

٥ً — إن كتاب تنوير سقط الزند قد تم تأليفه في خراسان في شهر المحرم سنة ٥٤١ وان المؤلف قتله الغز في أواخر سنة ٥٤٨ أو أوائل سنة ٥٤٩ بطوس وكان ذلك بعد استيلاء الغز على خراسان وأسرهم صاحبها السلطان سنجر.

ومن أغرب الحوادث أن هناك شارحاً آخر لسقط الزند هو صدر الافاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (٥٥٥—٦١٧) مؤلف ضرام السقط الذي أتم تأليفه سنة ٥٩٧ أي بعد تأليف التنوير بست وأربعين سنة ، قتله التتار في سنة ٦١٧ في خوارزم .

وقد أشار صدر الأفاضل في ضرام السقط [المطبوع بتبريز سنة ١٢٧٦ على هامش كتاب التنوير] إلى شراح السقط قبله وهم ابن الخطيب التبريزي صاحب التنوير . وهو قد حمل حملة على صاحب التنوير . كما حمل على صاحب شرح آخر هو الايضاح لمؤلف لا نعرفه .

أيها السادة الأفاضل

أختم كلمتي بالاعتذار اليكم لأني لم اجئكم بشيء ذي قيمة في بحثي هذا . فقد كنت أحب أن أتحدث اليكم عن الخيام وعلاقة أدبه بالمعري لأنهما يتشابهان في مواضع كثيرة ولكن ضيق الوقت وقلة البضاعة منعاني من ذلك فأعتذر اليكم ثانية والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس اقبال